الجملة الاعتراضية في القرآن الكريم

طلال يحيى ابراهيم الطوبجي
جامعة الموصل — كلية الاداب
قسم اللغة العربية

الحمد لله حمد الشاكرين ، والصلاة والسلام على نبيه الأمين ، وبعد :

فهذا بحث تناولت فيه الجملة الاعتراضية في القرآن الكريم مبيناً مواقعها في كلام الله تعالى ، عارضاً لفائدتها وتركيبها ، بعد أن سبقت هذا الكلام ببيان معنى الاعتراض ، وتحديد الجملة المعترضة ،لتتماز من غيرها مستعيناً في ذلك بما أورده علماء النحو والبلاغة في هذا المجال .

إن الجملة القرآنية مازالت بحاجة الى كثير من الجهد والدراسة للكشف عن طريقه استخدام القرآن للجمل ، وعن تركيبها في أبلغ الكلام — كلام الله الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه — ولاسيما اذا عرفنا أن الجملة لم تلق الاهتمام الذي حظيت به المفردة في كتب النحاة القدامى .

ولم يكن البحث في هذا المجال سهل القياد ، بل كانت طريقة صعبة تحتاج إلى عناء وترو ومزيد قراءة وبحث ، فاضطررت الى قراءات مكثفة في كتب التفسير للوقوف على مواطن هذا النوع من الجمل في القرآن ، إذ لايمكن التعويل على الذاكرة والحفظ في معالجة موضوع كهذا خوفاً أن تند آية عن مجال الذاكرة ، أو يسهو الحفظ عن استرجاع موطن شاهد . مع مراجعات لكتب والنحو والبلاغة ليستقيم البحث على صورة آمل أن تكون مقبولة .

ولكن بعد الجمع والاستقصاء ظهر أن ثمة عدداً من الايات المباركة التي تضم في ثنايا تركيبها جملا معترضة (١) ، يتعذر معه دراسة هذه الايات جميعها في بحث صغير كهذا ، لذا ارتأيت ان اعرض لنماذج منها فاتحاً الباب لجهد علمي اكبر يقوم باستقصاء الايات جميعها في كتاب الله تعالى .

(١) مما تجدر الإشارة اليه ان الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة أشار الى قسم من الجمل المعترضة في كتابه : دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، القسم الثالث ، الجزء الرابع : ص ٤٠٩ ٤٢١ .

معالم الجملة الاعتراضية

لقد تنازعت كتب النحو والبلاغة موضوع الاعتراض مما يدل على خصوبة هذا المبحث واهميته لدى علمائنا الأوائل ، لذا سأحاول الإفادة من جهود السابقين في تحديد معالم الجملة المعترضة .

ولعل خير مانبدأ به في تحديد هذه المعالم أن نحدد مفهوم الاعتراض لغة ، إذ يقال : اعترض بمعنى انتصب ومنع ، وصار عارضاً كالخشبة المنتصبة في النهر والطريق ونحوها تمنع السالكين سلوكها ، ويقال : اعترض الشيء دون الشيء ، أي حال دونه . واعترض الفرس في رسنه : لم يستقم لقائده (١) .

ويقال : سرت فعرض لي في الطريق عارض من جبل ونحوه ، أي : مانع يمنع من المضي ، واعترض لي بمعناه ، ومنه اعتراضات الفقهاء ؛ لأنها تمنع من التمسك بالدليل . (٢)

وفي الحديث : لاجلب ولاجنب ولا اعتراض ، أي أن يعترض رجل بفرسه في السباق فيدخل مع الخيل (٣) .

أما الاعتراض مصطلحاً * فقد كان معروفاً عند المتقدمين وإن اختلط أحياناً بمصطلح الالتفات (٤) ، إلا ان ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) حدد هذا المصطلح

---

(١) اللسان : مادة (عرض) ١٦٨/٧ — ١٦٩

(٢) خزانة الأدب ٨ / ٤٤٤ — ٤٤٥ .

(٣) اللسان ١٦٧/٧ ، والحديث عند أبي عبيد في غريبه : (لا جلب ولا جنب ولا شغار في الأسلام . غريب الحديث ١٢٧/٣ .

* يلحظ في الأصطلاح أن المعنى الأصطلاحي للكلمة لم يبتعد كثيراً عن الأصل الحسي لها .

(٤) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ٢٤٣/١ ، ومازال هذا النفس عند بعض المحدثين فهناك من يدعو الى «أن الأعتراض يمكن ان يكون من الأساليب التي تنضوي تحت مفهوم الا لتفات». ينظر : فن الا لتفات في البلاغة العربية ص١٧٦ . وهذا رأي يحتمل النقاش ، ولكن لا مجال لمناقشته هنا .

بما يبعد التداخل بين المصطلحين إذ قال : « ومن محاسن الكلام ايضاً والشعر اعتراض كلام في كلام لم يتمم معناه ، ثم يعود إليه فيتممه في بيت واحد » (١) .

وإذ يباين الاعتراض الالتفات ، فهو كذلك يباين التتميم والتكميل والايغال (٢) برغم اشتراك الجميع في أنها من ضروب الإطناب في العربية (٣) .

ومهما يكن من أمر فمصطلح الاعتراض قد عرف في الأوساط العلمية في نهاية القرن الثالث من الهجرة ، أما ماذهب إليه الدكتور عبد الفتاح لاشين عند كلامه على الاعتراض عند القاضي عبد الجبار (ت ٤١٥ هـ) بقوله : (وقد ذكر القاضي الاعتراض بقريب من أسمة الذي عرف به أخيراً) (٤) وقوله في موضع آخر : (وهذا ماسماه المتأخرون بالاعتراض » (٥) ، فكلام غير دقيق ، إذ أنه يوحي أن مصطلح الاعتراض لم يكن معروفاً في زمن القاضي ، والصحيح أنه معروف ومتداول بين معاصريه ، مثل ابن جني (ت٣٩٢ هـ) وابن فارس (ت٣٩٥ هـ) وابي هلال العسكري(ت٣٩٥ هـ)فضلا عمن سبقهم .

هذا مايتعلق بالاعتراض ، أما الجملة المعترضة (٦) فهي ، عبارة عن جملة تعترض بين كلامين تفيد زيادة في معنى غرض المتكلم (٧) .

---

(١) البديع : ص ٥٩ .
(٢) معجم البلاغة العربية : بدوي طبانة ٥٢٥/٢ .
(٣) الخواطر الحسان : ص ٢٢٨ .
(٤) بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار : ص ٢١١
(٥) نفسه : ص ٢١٢ .
(٦) نقل الشنواني (ت ١٠١٩ هـ) جواز القول : الجملة المعترضة بفتح الراء على أنه من باب الحذف والايصال، أي المعترض بها ، والمعترضة – بكسر الراء – مسندة الى الضمير المستتر فيها إسناداً مجازياً . تنظر : حاشية الشنواني ٩٣/١ .
(٧) خزانة الأدب وغاية الأرب : ص ٣٦٦ ، واخترنا هذا التعريف على غيره ؛ لأنه لم يحصر الأعتراض بأغراض معينة ، وهو مانميل اليه .

وعند النحاة : جملة صغرى تتخلل جملة كبرى على جهة التأكيد (١) .

وليست الجملة المعترضة من حشو الكلام في شيء ، برغم ان أبا هلال العسكري قد عدها من الحشو المحمود في كتابه الصناعتين (٢) ، إلا أنه عاد فعقد للاعتراض باباً قائماً برأسه (٣) ، فكأنه رأى أن فصل الاعتراض عن الحشو أفضل ، وكذلك قال السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) عن الاعتراض : ويسمى الحشو) (٤) ، إلا أن الفرق بين الحشو والاعتراض واضح ، إذ ان الأعتراض يخدم المعنى ويفيد زيادة في غرض المتكلم والناظم ، في حين يؤتى بالحشو لإقامة الوزن لاغير (٥). وفي هذا الصدد يقول ابن معصوم المدني (ت ١١٢٠هـ) إن الاعتراض « متى خلا عن نكتة سمي حشواً ، فلا يعد حينئذ من البديع » (٦) .

ومن معالم الجملة الاعتراضية اختلافها عن الجملة الحالية برغم وجود الشبه بينهما ، إذ يقول أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ) عند كلامه على الجملة الحالية : « وجرت عادة بعض النحاة أن يذكر هنا مايشبه جملة الحال وهي جملة الاعتراض وجملة التفسير» (٧) . إلا أن النحاة ميزوا الجملة ، المعترضة بأمتناع قيام المفرد مقامها ، وجواز اقترانها بالفاء — ولن — وحرف التنفيس، وكونها طلبية (٨) .

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٥٦/٣ .
(٢) الصناعتين : ص ٤٨ — ٤٩ .
(٣) نفسه : ص ٣٩٤ .
(٤) مفتاح العلوم : ص ٢٠٢ .
(٥) ينظر : خزانة الأدب وغاية الأرب : ص ٣٦٦ .
(٦) أنوار الربيع ١٣٦/٥ .
(٧) ارتشاف الضرب ٣٧١/٢ -- ٣٧٢ .
(٨) ينظر : تسهيل الفوائد : ص ١١٣ ، وارتشاف الضرب ٣٧٤/٢، ومغني اللبيب ٤٤١/٢ والجمل التي لها محل من الاعراب والتي لا محل لها ، نص محقق لابن ام قاسم، منشور في مجلة آداب الرافدين ، العدد السابع لسنة ١٩٧٦ : ص ٤١٥ .

ومن معالم الجملة الاعتراضية أيضاً أنه قد تتصل بها أحرف الاعتراض ، وهي الفاء ، والواو ، وإذ ، وحتى (١) .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه ان الدكتور فخر الدين قباوة قال عن هذه الأحرف : لقد « جمعت أحرف الاعتراض ، وهي مما أغفله القدماء والمعاصرون » (٢) ، والحق أن هذا الكلام لايمكن أخذه على إطلاقه ، إذ ان الشنواني قد أشار إلى عدد من هذه الأحرف في حاشيته على شرح مقدمة الإعراب (٣) .

والجملة المعترضة لامحل لها من الإعراب (٤) ؛ لأنها لاتؤول بمفرد ، إذ من المعلوم أن « كل جملة يسد المفرد مسدها فلها موضع من الإعراب ، وكل جملة لايسد المفرد مسدها فلا موضع لها من الإعراب » (٥) .

ويترتب على هذا ان لاتكون الجملة المعترضة معمولة لكلام سبقها (٦) ، بل لها الاستقلالية في التوجيه الإعرابي لمفرداتها ، على ان هذا لايعني إمكان إسقاط الاعتراض من الجملة بدعوى أن وجوده وعدمه لايؤثر في إعراب الجملة الأصلية او الجملة الكبرى كما سماها الزركشي (٧) ، لأن القيمة البلاغية للاعتراض تعطي الجملة بعداً دلالياً لايمكننا الحصول عليه لو أسقطنا الأعتراض من الجملة ، إذ كل زيادة في مبنى الجملة العربية لابد ان يقابل بزيادة في دلالتها.

وقبل ان أنهي الكلام على معالم الجملة الاعتراضية اود التوقف هنا للإجابة عن تساؤل يفرض نفسه ، وهو ما فائدة الاعتراض ؟ أو حسب ما يقول القدماء:

---

(١) ينظر : إعراب الجمل وأشباه الجمل : ص ٧٣ – ٧٤ .
(٢) نفسه : ص ٧ .
(٣) حاشية الشنواني ٩٤/١ .
(٤) اي : لا تتحمل حركة إعرابية ، وهو المصطلح الذي يحبذه الدكتور علي المنصوري ينظر : الدلالة الزمنية في الجملة العربية : ص ٣٢ .
(٥) الجمل التي لها محل من الإعراب والتي لا محل لها : ص ٤٠٥ .
(٦) ينظر : الخصائص ٣٣٧/١ .
(٧) البرهان في علوم القرآن ٥٦/٣ .

ماالنكتة في الاعتراض ؟ والجواب . إن أغلب الذين عالجوا هذا الموضوع حاولوا أن يحددوا فائدة الاعتراض بحصر النكت التي يأتي من أجلها (١) ، ولكني أرجح ما ذهب إليه الدكتور منير سلطان من أن غرض الاعتراض « يستقى من السياق » (٢) إذ لاحاجة في حصر أغراض الاعتراض بنكت معينة ثم نقوم بعد ذلك بقسر النصوص لتدخل تحت هذا الغرض أو ذاك بل نبقي لكل نص خصوصيته ، وندعه يفصح عن نفسه وعما أسداه له الأعتراض من فائدة .

(٢)

الجملة الاعتراضية في القرآن الكريم

أنزل القرآن الكريم على المصطفى — صلى الله عليه وسلم — بلسان عربي مبين ، فخاطب العرب بما ألفوا من أساليب الخطاب ، وكان الأعتراض من سنن العرب في كلامها (٣) ، إذ الأعتراض « في شعر العرب ومنثورها كثير وحسن ودال على فصاحة المتكلم وقوة نفسه وامتداد نفسه » (٤) ، فلا غرو أن وقع هذا الأسلوب في القرآن ، فجاء روعة في البيان وآية في جمال النظم .

وليست الجملة المعترضة قليلة في القرآن ، بل « ورد الاعتراض في القرآن كثيراً ، وذلك في كل موضوع يتعلق بنوع من خصوصيته المبالغة في المعنى المقصود » (٥) . ولنقف الان عند أنماط الجمل الاعتراضية ومقاصدها في القرآن ، مستشفين ذلك من عدد من الايات المباركة :

---

(١) ينظر مثلا : البرهان ٥٧/٣ ، وحاشية الشنواني ٩٤/١ ، وأنوار الربيع ١٣٦/٥

(٢) بلاغة الكلمة والجملة والجمل : ص ٢٣٨ .

(٣) ينظر : الصاحبي في فقه اللغة : ص ٢٤٧ .

(٤) الخصائص ٣٤١/١ ، وحسبنا نص ابن جني هذا في الرد على الدكتور شوقي ضيف إذ قال : إن الجملة الاعتراضية (كانت قليلة قديماً) : ينظر : تجديد النحو : ص ٢٥٧.

(٥) المثل السائر ٤٢/٣ .

١ ــ **الوعيد في الجملة الخبرية المثبتة** : ويتضح هذا المقصد بهذا النمط الخاص من التركيب في قوله تعالى : (يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ــ والله محيط بالكافرين ــ يكاد البرق يخطف أبصارهم) (١) فالاية في وصف المنافقين تبين حيرتهم في أمر دينهم كحيرة من باغتته السماء في ليلة ظلماء بمطر كثيف ورعد وبرق ، فهم يجعلون أصابعهم في آذانهم لشدة الصواعق وهول وقوعها على الأسماع خشية الموت أما البرق فيوشك ان يخطف أبصارهم لشدته وقوته ، فأبصارهم كانت مهيأة للرؤية في الظلام ، فأذا بها تفاجأ بضوء شديد خاطف ، يضطرب له البصر وتختل معه الرؤية ، فتجتمع عليهم « ظلمات متراكمة : ظلمة الغمام وظلمة الليل ، وظلمة المناخ » (٢) .

ويلاحظ أن جملة ــ والله محيط بالكافرين ــ جاءت معترضة (٣) في وسط المثل القرآني ، في وقت يكون فيه المخاطب قد شنف سمعه وتشوق لاستكمال الصورة ، ولكنه يعترض بهذه الجملة ليعلم أن لاعاصم من عذاب الله ، وآن قدرته سبحانه محيطة بالجميع إحاطة السور بالدار .

ولم تقتصر فائدة هذه الجملة المعترضة على ماسبق ، بل « فيها تتميم للمقصود من التمثيل بما تفيده من المبالغة ، لأن الكافرين وضع موضع الضمير وعبر به إشعاراً باستحقاق ذوي الصيب ذلك العذاب لكفرهم » (٤) .

وإذا بحثنا جملة ــ والله محيط بالكافرين ــ تركيباً فسنجدها جملة اسمية بسيطة مكونة من مبتدأ وخبر (٥) ، ولكنها في غاية الدقة في التعبير ، إذ ان

---

(١) البقرة : ١٩ ــ ٢٠ .
(٢) الصورة الفنية في المثل القرآني : ص ٢٩٣ .
(٣) ينظر : الكشاف ٦٥/١ ، والبحر المحيط ٨٧/١ ، وتفسير البيضاوي ١٠٠/١ ، وروح المعاني ١٤٧/١ .
(٤) روح المعاني ١٤٧/١ .
(٥) ينظر : إعراب القرآن للنحاس ١٤٤/١ ، والجامع لأحكام القرآن ٢٢١/١

كلمة (محيط) لفظ مشترك يحمل دلالات متنوعة ، منها الإحاطة بالعلم وبالقدرة وبالإهلاك وكلها دلالات توحي بالتمكن والسيطرة ، فحينما يسمع العربي : أحاط السلطان بفلان ، فإنه يفهم : أن السلطان أخذه أخذاً حاصراً من كل جهة ، قال الشاعر :

أحطنا بهم حتى إذا ماتيقنوا بما قد رأوا مالوا جميعاً الى السلم(١)

هذا في إحاطة البشر ، فما قولك بإحاطة الله خالق البشر ؟ ! !

٢ — التحدي والتعجيز في الجملة الفعلية المنفية نفي تأكيد في سياق تركيب شرطي :

ويتضح هذا المقصد بهذا النمط التركيبي في قوله تعالى : (وإنْ كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إنْ كنتم صادقين فإن لم تفعلوا — ولن تفعلوا — فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة) (٢) ويُلحظ ان المقام مقام تحدٍّ للبشر في معارضة القرآن ، ليجتمع كل البشر ، وليستعينوا بمن شاءوا سوى الله ، ثم ليجمعوا امرهم وليوحدوا صفوفهم ، فهل يستطيعون أن يأتوا بسورة قصيرة واحدة من مثل القرآن ؟ كلا إنكم إذ (لم تفعلوا) اذاً (فاتقوا النار) ، وبين هاتين الجملتين اللتين هما جملة الشرط وجزائه جاء الاعتراض : (لن تفعلوا) الذي فيه «من تأكيد المعنى مالا يخفى» (٣) . فالله سبحانه وتعالى يستفزّ الهمم ويحركها ليكون العجز «بعد ذلك ابدع» (٤) .

إنّ جملة الاعتراض (لن تفعلوا) المكونة من حرف النفي (لن) الذي يفيد التأكيد الشديد وإن شئت أن تقول التأبيد، جاءت بعد جملة الشرط (لم تفعلوا)

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٢١/١ .
(٢) البقرة : ٢٣ — ٢٤ .
(٣) البحر المحيط ١٠٧/١ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٣٤/١ .

المكوّنة من الفعل المضارع المسبوق بـ (لم) التي «يجوز ان يكون معنى الفعل المضارع المنتفي بها كان قد انتهى وانقطع امده قبل الكلام بوقت قصير ، او طويل ،او ان يكون الفعل مستمراً متصلاً بالحال ،اي : بوقت الكلام ، ولكن يستحيل ان يكون للمستقبل او متصلاً به» (١) لذا جاءت الجملة الاعتراضية مُصدّرة بـ (لن) للدلالة على النفي المؤكد للمستقبل ، وهذا من الغيب الذي اطلعنا عليه القرآن قبل وقوعه .

واذا أريد معرفة حسن موقع هذه الجملة المعترضة فليُنظر في ما قاله «جماعة من المفسرين» من أن «معنى الآية : وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ولن تفعلوا فإن لم تفعلوا فاتقوا النار» (٢) ، وكفانا الشنواني مؤونة الرد على هذا التأويل إذ قال : «وفيه نظر لا يخفى» (٣) .

٣ ـ التعجب والتهكم في الجملة الخبرية المصدرة بأداة التشبيه الواقعة في سياق مقول القول :

ويتضح هذا المقصد بهذا النمط في قوله تعالى: (ولئن اصابكم فضل من الله ليقولنّ ـ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ـ يا ليتني كنتُ معهم فأفوز فوزاً عظيماً) (٤) فهذه الآية وسابقتها تُبيّن موقف المنافقين من القتال ، فان دارت الدائرة على المسلمين ، قال المنافقون : (قد انعم الله عليّ إذ لم اكن معهم شهيداً) أما إذا اصاب المسلمون غنيمةً او حققوا انتصاراً ،فإن هذا المنافق يقول نادماً حاسداً خائباً : (يا ليتني كنتُ معهم فأفوز فوزاً عظيماً) .

ويلحظ ان الجملة المعترضة : (كأن لم تكن بينكم وبينه مودة) وقعت بين فعل القول (ليقولنّ)وبين مفعوله (ياليتني) ،وهي «من كلامه تعالى» (٥) فكأنه

---

(١) الدلالة الزمنية في الجملة العربية : ص ٧٩ .
(٢) حاشية الشنواني ٩٦/١ .
(٣) نفسه .
(٤) النساء : ٧٣ .
(٥) روح المعاني ١٢٧/٢ .

سبحانه قاطعهم قبل ان يُتموا قولهم بهذه الجملة المعترضة التي هي «في غاية الحُسن» (١) لينبه المسلمين على تلك المودّة الكاذبة التي كان يبديها المنافقون والتي انمحت آثارها عند اول موقف يُكشف فيه عن الدخائل وتُفتضح السرائر. إنّ قيمة هذا الاعتراض ليست فيما ذكرنا فحسب ، بل هنالك ناحية أخرى شكلية تتعلق بالنظم وهي انها «لو تأخرت جملة الاعتراض لم يحسُن ؛ لكونها ليست فاصلة» (٢). وسورة النساء تنتهي معظم آياتها بالألف الممدودة، فاجتمعت الفائدة المعنوية واللفظية في موقع الاعتراض ، فكان ذلك من حسن النظم .

ولعل من سُمو هذا الاعتراض وثرائه ان نجد بلاغيي المفسرين يختلفون في تعليل فائدته ،فكلٌ يستشف منه معنىً جديداً لا يراه الآخر ، فالزمخشري (ت ٥٣٨هـ) يقول : «والظاهر انه تهكم» لان اولئك المنافقين «كانوا اعدى عدوٍ للمؤمنين ، وأشدّهم حسداً لهم ، فكيف يوصفون بالمودة إلا على وجه العكس تهكماً بحالهم» (٣) .

أما ابن عطية فيقول: «قوله تعالى: (كأن لم تكن بينكم وبينه مودة) التفاتة بليغة واعتراض بين القائل والمقول ، بلفظ يظهر زيادة في قبح فعلهم» (٤) .
في حين يرى فخرالدين الرازي (ت ٦٠٦هـ) أنّ «المراد التعجب ، كأنه تعالى يقول : انظروا إلى ما يقول هذا المنافق ، كأنه ليس بينكم ايها المؤمنون وبينه مودة ولا مخالطة اصلاً» (٥) .

ورأى الشيخ محمد علي الصابوني — وهو من المعاصرين — ان هذه الجملة «اعتراضية للتنبيه على ضعف ايمانهم» لأن «هذه المودة في ظاهر المنافق لا في

(١) التفسير الكبير ١٠/١٧٩ .
(٢) البحر المحيط ٣/٣٩٤ .
(٣) الكشاف ١/٥٣٣ .
(٤) البحر المحيط ٣/٢٩٣ .
(٥) التفسير الكبير ١٠/١٨٠ .

اعتقاده» (١) وإني إذ استعرض هذه النصوص أؤكد ما قلته من سمو الاعتراض القرآني وثرائه .

وأما تركيب الجملة المعترضة (كأن لم تكن بينكم وبينه مودة) فخلاصته : (كأن) مخففة مضمنة معنى التشبيه واسمها ضمير شأن + (لم) هي من الأدوات التي تقترن بها الجملة الفعلية بعد (كأنْ) (٢) + (تكن) الناقصة + (بينكم وبينه(خبر)تكن المقدم (٣) + (مودة اسم (تكن) المؤخر . (وجملة) لم تكن بينكم وبينه مودة(خبر كأن) .

إنّ هذا التركيب المتداخل للجملة المعترضة كأنه يصف تداخل المنافقين بين المسلمين ، ذلك التداخل الذي تناساه المنافق ساعة النصر ، فتمنى ان تكون (بينكم وبينه) : (مودة) بأية صورة ولو صغرت !!

ويلاحظ هنا ان دلالة تنكير (مودة) وتأخرها عن خبرها (بينكم وبينه) قد اعطى جملة الاعتراض معاني عميقة ، وصدق الحموي إذ قال : «وفي الاعتراض من المحاسن المكملة للمعاني المقصودة ما يتميز به على انواع كثيرة» (٤)

٤ ـ التوكل والثقة بالله في الجملة الفعلية التي قدم عليها متعلقها للاختصاص في سياق التركيب الشرطي :

ويتضح هذا المقصد بهذا النمط التركيبي في قوله تعالى : (وآتل عليهم نبأ نوحٍ إذ قال لقومه : يا قوم إنْ كان كَبُرَ عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله ـ فعلى الله توكلت ـ فأجمعوا امركم وشركاءكم ثم لا يكن امركم عليكم غُمّة ثم اقضوا إليّ ولا تُنظرون) (٥) فيلاحظ ان الجملة الاعتراضية

---

(١) صفوة التفاسير ١١٠/٢ .
(٢) ينظر : البحر المحيط ٢٩٢/٣ .
(٣) ينظر : مشكل إعراب القرآن ٢٠٢/١ .
(٤) خزانة الأدب وغاية الأرب : ص ٣٦٦
(٥) يونس : ٧١ .

(فعلى الله توكلت) قد وقعت بين جملة الشرط وجزائه ، وقبل التعرض لجملة الاعتراض ، لابُدّ من التوقف عند مسألة اختلفت فيها الأقوال ، وهي : هل جملة (فعلى الله توكلت) معترضة حقاً ، ام انها جواب الشرط؟

ثمّة ثلاثة اقوال في ذلك ، **الأول :** قيل إن «جواب الشرط محذوف تقديره : فافعلوا ماشئتم» (١) ، اي : إن كان كبُرَ عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فافعلوا ماشئتم . وهذا القول لا نرتضيه لسببين ، الأول : إنّ الحذف خلاف الأصل ، فلا يُصار اليه الا عند الضرورة ، والثاني : إنّ في الآية نفسها ما يصلح أن يكون جواباً ويستقيم معه المعنى على اكمل وجه ، الا وهو قوله : (فأجمعوا امركم...)

القول الثاني :

إن جملة (فعلى الله توكلت) هي جملة جواب الشرط ، وجملة (فأجمعوا) معطوفة عليها (٢) . وقد ردّ ابو حيان هذا الرأي إذ قال : «وهو لا يظهر» لأن نوحاً عليه السلام «متوكل على الله دائماً» (٣) ، فتوكله ليس موقوفاً على الشرط المذكور .

القول الثالث :

إنّ جملة (فعلى الله توكلت) معترضة ،وجملة (فأجمعوا) هي جملة جواب الشرط ،وهذا رأي (الأكثرين) كما حكاه فخرالدين الرازي (٤)، وأبو حيان الاندلسي (٥) ، وهو اختيار ابن فارس (٦) . وهو الذي نرجحه ونختاره ؛ لأنه يتفق مع السياق اتفاقاً تاماً ؛ لأن نوحاً عليه السلام قال كلامه هذا بعد أن

---

(١) البحر المحيط ١٧٨/٥ .
(٢) وممن اختار هذا الرأي من المفسرين : القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٣٦٢/٨ ، والآلوسي في روح المعاني ٤٧١/٣ .
(٣) البحر المحيط ١٧٨/٥ .
(٤) التفسير الكبير ١٣٧/١٧ .
(٥) البحر المحيط ١٧٨/٥ .
(٦) الصاحبي : ص ٢٤٨ .

يئس من قومه فأخبرهم بجملة الجزاء التي ضمت قيوداً خمسةً هي : اجمعوا امركم ، ثم جمعّوا شركاءكم الذين تستنصرون بهم ، ثم اجهروا بقراركم ولا تخفوه ، ثم امضوا إليّ بمكروهكم ، ثم لا تمهلوني بعد إعلامكم (١) .

إنّ هذه القيود الخمسة مناسبة ايّ مناسبة لجملة الشرط المذكورة فَحُقّ لها أن تكون جملة الجزاء الشرطي .

وهنا يأتي دور جملة الاعتراض (فعلى الله توكلت) متوسطة بين الشرط وجزائه ، مؤدية معنى لايمكن تحقيقه لولا هذا الاعتراض ، إذ قيل أن يخبرهم نوح عليه السلام بجملة الجزاء الشرطي وقيودها الخمسة التي يرهب لها أي شخص ، أخبرهم أنه غير مكترث بكل مايكيدونه ، ثقة بالله الذي يحفظ أنبياءه وأولياءه من كل يد غادرة .

أما تركيب الجملة المعترضة فإنه في أعلى رتب البلاغة في تعبيره عن المعنى المقصود وتصويره لحالة نوح عليه السلام النفسية تصويراً دقيقاً ، إذ ان في جملة (فعلى الله توكلت) ، » تقديم ماحقه التأخير لإفادة الحصر ، أي : على الله لا على غيره » (٢) ، إن تقديم الجار والمجرور على متعلقه في هذه الاية يعني الحصر والاختصاص ، إذ ان توكل نوح عليه السلام كان محصوراً بالله مختصاً به سبحانه ، فلذلك جاءت جملة الجزاء الشرطي مليئة بالتحدي ، تحدي الواثق من النصر .

واذا أريد استشفاف جمالية التركيب في الجملة المعترضة فلا بد من إعادة قراءة النص القرآني باعادة الجار والمجرور الى موقعه لتصبح الجملة في غير القرآن : (فتوكلت على الله) وسيتضح حينئذ سموق النص القرآني وإعجاز تركيبه .

---

(١) ينظر : التفسير الكبير ١٧/١٣٧ – ١٣٨ .
(٢) صفوة التفاسير ٥/٨٠ .

٥ – تعظيم المقسم به في اعتراض مركب في سياق جملة القسم

ويلحظ هذا المقصد بهذا النمط التركيبي في قوله تعالى: (فلا أقسم بمواقع النجوم – وإنه لقسم لو تعلمون عظيم – إنه لقرآن كريم)(١) حيث تبدأ الاية بقسم من رب العالمين (فلا أقسم)، وقيل في (لا) هذه انها(مزيدة مؤكدة) (٢) وقيل :أصلها لام أشبعت فتحتها وهو مارجحه أبو حيان، وقيل غير ذلك (٣) اذاً يقسم تعالى بمواقع النجوم إنه لقرآن كريم . ولكن ماموقع النجـــوم ؟ إن مواقعها « منازلها ومسايرها ، وله تعالى في ذلك من الدليل على عظيـــم القدرة والحكمة مالايحيط به الوصف » (٤) . وما الحكمة في تخصيصهـــا بالقسم ؟ يقول ابوحيان: لأنه « في إقسامه تعالى بمواقع النجوم سر في تعظيم ذلك لانعلمه نحن » (٥) . فالعربي كان على إطلاع بمعرفة النجوم يهتدي بها في صحرائه فكانت له صوى تهديه إن ضل وترشده إن أخطأ ،ولكنها معرفة سطحية يفيد منها في تحديد مكانه هو ،ولكن أين مكانها هي ؟ الكـــواكب المجموعات الشمسية ،المجرات التي تسبح في كون واسع لم يكتشف العلم الحديث بأجهزته المتقدمة إلا أقل القليل مما في علمه سبحانه ! !

اذاً علينا أن نذعن لهذا القسم ، ونسلم بضآلة معرفتنا تجاه مواقـــع النجوم ، وهنا يجيء الاعتراض : (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) ، واي نوع مـــــن الاعتراض ؟ إنه « اعتراض في اعتراض ؛ لأنه اعترض به بين المقسم والمقسم عليه ، وهو قوله : (إنه لقرآن كريم) ، واعترض بـ (لوتعلمون) بيـــــن الموصوف وصفته » (٦) . فجاء الاعتراض الأول : (وإنه لقسم عظيم) جملة

---

(١) الواقعة : ٧٥ – ٧٧ .
(٢) الكشاف ٤٦٨/٤ .
(٣) ينظر التفسير الكبير ١٨٧/٢٩ ، والبحر المحيط ٢١٣/٨ .
(٤) الكشاف ٤٦٨/٤ .
(٥) البحر المحيط ٢١٤/٨ .
(٦) الكشاف ٤٦٨/٤ .

مؤكدة بـ (إن) واللام ، ودلالة كلمة (عظيم) ، كل ذلك للتعبير عن عظمة المقسم به ، ومع ذلك التعظيم فإن ادراك الإنسان لايرقى لاستكناه ذلك السر العظيم ، وعلمه مهما بلغ فإنه لايستطلع ذلك العالم حق استطلاعه ، فجاء الاعتراض الثاني (لو تعلمون) متداخلا بين الاعتراض الأول ، فوقع بين الموصوف (لقسم) وبين الصفة (عظيم) .

وجملة الاعتراض الثانية (لوتعلمون) « وضعت علم الإنسان في حجمه الطبيعي ووضعت النجوم ومايدور بها وحولها في موضعها من حيث التعظيم والتقدير » (١) . ويلاحظ تركيب (لوتعلمون) فإن (لو) محذوفة الجواب وقيل : مقدر بـ : لو تعلمون لعظمتموه ، وقيل : « الجواب محذوف بالكلية لم يقصد بذلك جواب» (٢) . ثم أين المفعول به لـ (تعلمون) ؟ قيل : محذوف وقيل : لامفعول له ، وذلك « أبلغ وأدخل في الحسن » (٣) .

إذاً فدلالة هذا الاعتراض المركب – إن صح التعبير – (٤) دلالة قوية في بيان عظمة علم الخالق وضآلة علم المخلوق ، إن الاعتراض في هذه الاية يشكل ملمحاً للاعتراض القرآني بأنه قد يكون مركباً ، أي يدخل الاعتراض اعتراض آخر لتأدية المعنى المطلوب بأكمل وجه .

٦ – تخصيص أحد المذكورين بمزيد العناية والأهتمام بأكثر من جملة في سياق الإجمال والتفسير :

ويلحظ هذا المقصد بهذا النمط في قوله تعالى :

(ووصينا الإنسان بوالديه – حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين – أن

---

(١) بلاغة الكلمة والجملة والجمل : ص ٢٣٨ .

(٢) التفسير الكبير ١٨٩/٢٩ .

(٣) نفسه .

(٤) نرى لو يأخذ الباحثون بهذا المصطلح بدل المصطلح القديم : (اعتراض في اعتراض) .

اشكر لي ولوالديك) (١) ، إذ يوصي رب العزة الأنسان بأن يشكر الله سبحانه ثم يشكر والديه اللذين كانا سبب وجوده بأمر الله .

وبين قوله : (ووصينا الانسان بوالديه) وقوله المفسر لهذه التوصية (أن أشكر لي ولوالديك) يعترض سبحانه بقوله : (حملته أمه وهناً على وهن ، وفصاله في عامين) ذلك « الاعتراض الذي قد طبق مفصل البلاغة ، وفائدته أنه لما أوصى بالوالدين ذكر ماتكابده الأم من المشاق في حمل الولد وفصاله ايجاباً للتوصية بها وتذكيراً بحقها » (٢) .

وإذا امعنا النظر في الاعتراض في هذه الاية وجدناه يتكون من جملتين (٣) ، أولاهما : قوله تعالى : (حملته أمه وهناً على وهن) ، والثانية : (وفصاله في عامين). والاعتراض بجملتين أو أكثر وارد في القرآن في أكثر من موضع وهو ما يشكل ملمحاً للجملة الاعتراضية القرآنية ، وكفانا هذا دليلا في الرد على أبي علي النحوي (ت٣٧٧هـ) الذي منع الاعتراض بأكثر من جملة (٤).

أما بلاغة هذا الاعتراض فظاهرة ، إذ فيه تخصيص لأحد المذكورين بمزيد من العناية والاهتمام ، فكان الاعتراض الأول : (وهناً على وهن) وهو « في موضع الحال « ومعناه أن الأم » تضعف ضعفاً على ضعف ، أي : يتزايد ضعفها ويتضاعف ؛ لأن الحمل كلما ازداد وعظم ، ازدادت ثقلا وضعفاً » (٥) . ويلحظ معنى الاستمرار والتكرار في هذا الاعتراض (وهناً

---

(١) لقمان : ١٤ .
(٢) المثل السائر ٣/٤٣ .
(٣) ينظر : مغني اللبيب ٢/٤٣٩ .
(٤) افاضت كتب النحو والبلاغة في ذكر هذا الرأي ومناقشته ، ينظر مثلا : تسهيل الفوائد ص ١١٣ ، وارتشاف الضرب ٢/٣٧٥ ، ومغني اللبيب ٢/٤٤٠ ، والبرهان ٣/٦١ .
(٥) الكشاف ٣/٤٩٤ ، وقال النحاس : «فأما نصب (وهناً على وهن) فما علمت ان احداً من النحويين ذكره ، فيكون مفعولا ثانياً على حذف الحرف ، اي : حملته بضعف على ضعف» اعراب القرآن ٢/٦٠٣ ، وهو ما اختاره مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/٥٦٥ والذي يبدو لي ان ما ذهب اليه الزمخشري من النصب على الحالية ارجح .

على وهن) . وهنا جاءت الجملة الاعتراضية الثانية : (وفصاله في عامين) التي حملت دلالتين عظيمتين : الأولى : الدلالة الاعتراضية ، وهي تأكيد منزلة الأم لما تعانيه بعد الولادة من المشاق والثانية : الدلالة التشريعية ، إذ شرع سبحانه من خلال هذا الاعتراض المدة القصوى للفطام ، وهي سنتان ، وهذا ما اعتبره الفقهاء في هذه المسألة ، ويلحظ تأخير الجار والمجرور في قوله : (وفصاله في عامين) كم أدى من فائدة ، إذ لو قال : (وفي عامين فصاله) لامتنع فصال الطفل قبل هذه المدة ، ولكنه سبحانه أوكل ذلك للأهل، وحدد المدة القصوى فقط .

وختاماً إن كان لابد من كلمة أخيرة ونحن نغادر الموضوع : فكلمتنا هي وقفة عند قوله تعالى : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ لانكلف نفساً إلا وسعها ـ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) (١) فجعل رب العزة سبحانه الجنة جزاءً لمن آمن وعمل صالحاً ، واعترض بين الجملتين بقوله : (لانكلف نفساً إلا وسعها) فدل بذلك ان الجنة تنال بالإيمان والعمل الصالح الذي يستطيعه الإنسان ، لابما يعجز ، وما لايكون بوسع الانسان فعله ... اللهم فلا تكلفنا مالا طاقة لنا به ، وأعذنا من فتنة القول والعمل .

---

(١) الأعراف : ٤٢ .

المصادر والمراجع

١ — ارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبي حيان الأندلسي ، تحقيق: الدكتور مصطفى النماس ، الطبعة الأولى ، مطبعة المدني ١٤٠٨ هـ — ١٩٨٧ م .

٢ — إعراب الجمل وأشباه الجمل ، : الدكتور فخر الدين قباوة ، الطبعة الثالثة ، دار الافاق الجديدة ، بيروت ١٤٠١ هـ — ١٩٨١ م .

٣ — إعراب القرآن : لأبي جعفر النحاس ، تحقيق : الدكتور زهير غازي زاهد ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٧٨ — ١٩٨٠ م .

٤ — أنوار الربيع في أنواع البديع : لابن معصوم المدني ، تحقيق : شاكر هادي شكر ، الطبعة الأولى ، مطبعة النعمان — النجف الأشرف ١٣٨٩ هـ — ١٩٨١ م.

٥ — البحر المحيط ، لأبي حيان الأندلسي ، الطبعة الأولى ، مطبعة السعادة — مصر ١٣٢٨ هـ .

٦ — البديع : لابن المعتز ، تحقيق ، أغناطيوس كراتشفوفسكي ، طبع في بريطانيا ١٩٣٥ م .

٧ — البرهان في علوم القرآن : للزركشي ، تحقيق ، محمد أبو الفضل ابراهيم ، الطبعة الثانية ، دار المعرفة للطباعة والنشر — بيروت .

٨ — بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار : الدكتور عبد الفتاح لاشين ، مطبعة دار القرآن .

٩ — بلاغة الكلمة والجملة والجمل ، الدكتور منير سلطان ، منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٨٨ .

١٠ — تجديد النحو : الدكتور شوقي ضيف ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٨٦ .

١١ ــ تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد : لابن مالك ، تحقيق : محمد بركات ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٧ هـ ــ ١٩٦٧ م.
١٢ ــ التفسير الكبير : للامام فخر الدين الرازي ، الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية ــ طهران .
١٣ ــ الجامع لأحكام القرآن : للقرطبي ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٧ هـ ــ ١٩٦٧ م .
١٤ ــ حاشية الشنواني على شرح مقدمة الأعراب ، للشنواني ، تحقيق : محمد شمام ، الطبعة الثانية ــ مطبعة النهضة ، تونس ١٣٧٣ هـ .
١٥ ــ خزانة الأدب وغاية الأرب : لابن حجة الحموي ، المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٤ هـ .
١٦ ــ خزانة الأدب ولب لباب لسان العربي ، لعبد القادر البغدادي ، تحقيق : عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ، مطبعة المدني ــ القاهرة ١٤٠٩ هـ ــ ١٩٨٩ م .
١٧ ــ الخصائص : لابن جني ، تحقيق : محمد علي النجار ، الطبعة الثانية صورة عن طبعة دار الكتب ، نشر دار الهدى للطباعة والنشر ــ بيروت.
١٨ ــ الخواطر الحسان في المعاني والبيان ، جبر ضومط ، الطبعة الثانية ــ مطبعة الوفاء ــ بيروت ١٩٣٠ .
١٩ ــ دراسات لإسلوب القرآن الكريم : محمد عبد الخالق عضيمه ، المركز الأسلامي للطباعة ــ القاهرة .
٢٠ ــ الدلالة الزمنية في الجملة العربية : الدكتور علي جابر المنصوري ، الطبعة الأولى ، مطبعة الجامعة ــ بغداد ١٩٨٤ .
٢١ ــ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : للالوسي ، الطبعة الأولى ، مطبعة بولاق ١٣٠١ هـ .

٢٢ — الصاحبي في فقه اللغة ، لابن فارس ، تحقيق : الدكتور مصطفى الشويمي ، مطابع أ . بدران بيروت ١٩٦٤ م .
٢٣ — صفوة التفاسير : الشيخ محمد علي الصابوني ، الطبعة الأولى ، دار القرآن الكريم — بيروت ١٤٠١ هـ — ١٩٨١ م .
٢٤ — الصناعتين : لأبي هلال العسكري ، تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، المكتبة المصرية — بيروت ١٤٠٦ هـ — ١٩٨٦ م .
٢٥ — الصورة الفنية في المثل القرآني : الدكتور محمد حسين الصغير ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ١٩٨١ م .
٢٦ — غريب الحديث : لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي ، طبعة مصورة عن طبعة دائرة المعارف العثمانية ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م .
٢٧ — من الالتفات فالبلاغة العربية ، قاسم فتحي سليمان ، رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الاداب جامعة الموصل ١٩٨٨ .
٢٨ — اكتشاف : لجار الله الزمخشري ، دار الكتاب العربي — بيروت ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م .
٢٩ — لسان العرب : لابن منظور ، دار صادر — بيروت ١٩٥٦ م .
٣٠ — المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : لابن الأثير تحقيق : الدكتور أحمد الموفي ، والدكتور بدري طبانة ، الطبعة الأولى ، مطبعة النهضة ١٣٨٠ هـ — ١٩٦٠ م .
٣١ — مشكل إعراب القرآن ، مكي بن أبي طالب القيسي ، تحقيق ، الدكتور حاتم صالح الضامن ، منشورات وزارة الأعلام — بغداد ١٩٧٥ م .
٣٢ — معجم البلاغة العربية : الدكتور بدري طبانة ، الطبعة الأولى ، منشورات جامعة طرابلس ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م .

٣٣ ـ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: الدكتور أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .
٣٤ ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : لابن هشام تحقيق : الدكتور مازن مبارك ومحمد علي حمدالله ، الطبعة الثانية ، دار الفكر الفكر ١٩٦٩ م .
٣٥ ـ مفتاح العلوم : للسكاكي ، الطبعة الأولى ، مطبعة البابي الحلبي بمصر ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧ م .

« الدوريات »

١ ـ الجمل التي لها محل من الإعراب والتي لامحل لها : لابن أم قاسم المرادي ، تحقيق : الاستاذ طه محسن . مجلة آداب الرافدين ، العدد السابع ١٩٧٦ .